

السَّابِ وَالْجَمْدِيُّ وَالْبَصِيحُ

بقلم الدكتور ابراهيم مذكور بك

أستاذ الفلسفة بكلية الآداب وعضو مجلس الشيوخ

لقد كتبت عن الشباب من قبل ، وما كتب عنه اليوم ، ولا أظننى أتردد إن سمحت الفرصة في أن أكتب عنه غداً، وأرجو ألا يكون في هذا إصراف ولا إملال، فإن في حديثنا عنه ما يزيننا عن ما ضينا ، ويسلينا في حاضرنا ، ويفتح أمامنا أبواب مستقبلنا . ومجلة "الشئون الاجتماعية" — وهى مجلة الأمل والمستقبل والاصلاح والتقدم — جديرة بأن تمنح الشباب قسطاً كبيراً من عنايتها ، وتدرس مشاكله على اختلافها . هذا إلى أن موجة من اليأس والتشاؤم أخذت تجرى بيننا منذ زمن ، فتمكنت من كثيرين من شيوخنا ، ونفذت إلى بعض شبابنا ، ولا بد لنا أن نمد طليها الطريق إن كنا نريد نهوضاً ونفشد إصلاحاً وتجديداً . وسلاحنا الأول في ذلك إنما هو الشباب بأمله الواسع وهمته العالية .

غفل الناس قديماً عن الشباب وأثره في الفرد والمجتمع ، فلم يوضحوا مظاهره ولم يحلوا أعراضه ، وشغلوا بالرجولة والشيخوخة عن مراحل الحياة الأخرى . فلا نكاد نحظى عنه في التاريخ القديم والمتوسط بملاحظة تذكر، اللهم إلا بتلك الصفحة الخالدة التى وضعها أرسطو في كتاب "الخطابة" المشهور ، والتي جاء فيها : "إن المرء في مرحلة شبابه أشجع منه في أية مرحلة أخرى من مراحل حياته . نفسه سامية لأنها لم تدنس بعد بمظاهر الحياة الانسانية أو لم تتخضع لسلطان الحاجة ؛ وليس شئ أدى إلى رفعة النفس من أن يعتقد الإنسان أنه أهل لعظام الأمور . والشبان في إقدامهم وإحجامهم مدفوعون بمامل الخير والجمال ، بمامل المصلحة والمنفعة ، يسرون في الحياة ورائدهم المثل العليا لا الغايات الحقيرة" .

ولم يحفظ الباحثون في التاريخ الحديث خطوة أفسح من هذه كثيراً . حقا إن بعض الأدباء والفلاسفة المحدثين — أمثال بيكون وبسكال ولارو شفوكو — عرضوا للشباب وأشاروا إلى بعض مظاهره الأخلاقية والنفسية ، ولكنها ملاحظات محدودة وإشارات جزئية لا يعتد بها . وأما روسو — في "اعترافاته" أو في كتابه "إميل" — فإنه ، وإن عالج نفسية الطفل والشاب معا ، لم يدرسها دراسة علمية منظمة . وكان لا بد لنا أن ننظر إلى أنحريات القرن الماضى لنرى فيلوفيا وميكولوجيا أمرىكا دو "استانلى هول" الذى وجه الدعوة إلى دراسة مظاهر الشباب الجسمية والعقلية والروحية ، ووضع في ذلك كتابه الكبير الذى يقع في نحو ألف وثلاثمائة صفحة "Adolescence" .

وما إن دق هذا العالم ناقوس البحث حتى تابعه كثيرون وسار على نهجه أشخاص مختلفون . والأمر يكون بوجه خاص يعرفون كيف يضربون الرقم القياسى فى كل شىء ، إن فى العلم أو فى الصناعة ، فأسست جمعيات وأنشئت مجلات ، وكل همها أن تجمع المعلومات عن الشباب فى حياته الجسمىة والعقلية ، الفردية والاجتماعية ، وأن تدرس غرائزه واستعداداته وعواطفه ووجداناته . ولم تقف عند الشبان الأصحاء بل تعدتهم الى المرضى ، ولم تقنع بالعاديين منهم بل جاوزتهم الى المتأزين . وتعددت وسائل الدراسة وتنوعت طرائق البحث فاستخدم المنهج الاحصائى ووجهت مئات الأمثلة لتوضيح ظاهرة من ظواهر الشباب ، واعتمد على المنهج التجريى والأجهزة المختلفة لقياس القوى الفكرية والنو الجسمى . ولم يغفل رجال المال والأعمال موضوع الشباب فى السوق الاقتصادية ، وكان من نتائج ذلك قوانين تيلور المشهورة .

وقد صاحب هذه الحركة الواسعة النشطة حركات أخرى تقرب منها فى إنجلترا وفرنسا وألمانيا وسويسرا ، ويكفى أن نشير الى جيمس سلى الانجليزى وألفرد بينيه الفرنسى واشترن الألمانى وكلا باريد السويسرى الذين يعدون أصلام الدراسة السيكولوجية فى عالم الطفل والشاب فى الخمسين سنة الأخيرة .

بيد أن مصر مع الأسف الشديد لم تأخذ بقسطها من هذه الدراسة إلا أخيراً ، وكانت التربية حتى عهد قريب لا تزال قائمة على تلك النظرية الخاطئة التى لا تفرق بين الطفل والشاب ولا بين الشاب والشيخ ، كما كان التعليم مؤسسا على فكرة تزويد التلاميذ ببطائفة من المعلومات سواء لامت أذهانهم أو لم تلامحها . ومنذ عشر سنوات تقريبا بدأنا فقط ننظر الى عالم الطفولة على أنه عالم مستقل ، وأخذنا ندرسه من بعض نواحيه . أما عالم الشباب فلم ننتبه اليه بعد ، ويظهر أن وزارة المعارف أحست هذا النقص فاستدعت أستاذا أجنبيا ليجعله ونقدره هو الملامة كلا باريد - الذى توفى أخيراً - ليدرس مشكاة المدارس الثانوية ، ولكن بحثه لم يأت بثمره واضحة لامن الناحية النظرية ولا من الناحية العملية ، وعدته وزارة المعارف سرا من أسرارها لم تشأ أن تذيب منه شيئا على الجمهور . والأمل معقود الآن على الجامعة ومعهد التربية فى تلاقى هذا النقص وسد هذه الثغرة ، فيدرس الشباب المصرى دراسة مستفيضة كما درس الشباب الانجليزى والأمريكى .



الشباب مرحلة ممتازة من مراحل العمر ، لها خصائصها الذاتية من نمو جسمى وتطور فكرى وروحى . وقد اختلف الباحثون فى تحديدها ، ففريق يرى أنها تبدأ فى الثامنة عشرة وتنتهى فى الخامسة والعشرين ، وفريق آخر يضيق دائرتها ويحصرها بين الخامسة عشرة

والعشرين ، ولأبقراط فيها رأى قديم مشهور ، خلاصته أنها مرحلة من العمر تقع بين الرابعة عشرة والثامنة والعشرين. إلا أن الراجح اليوم أن فترة الشباب متغيرة من بيئة الى أخرى ومن جنس الى آخر ، فهي في البلاد الحارة مختلفة عنها في البلاد الباردة ، وفي الإناث عنها في الذكور . وربما كان أحسن تحديد لها عندنا أن نضعها بوجه عام بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين .

في الشاب نواح عدة جدية بالبحث والدراسة . فهناك نموه الجسمي وما يصحبه من غيرات مختلفة ، وخاصة الفريضة الجنسية التي اعتبر الشباب من أجلها ميلادا ثانيا . وهناك عواطفه المتأججة من حب وبغض وغيره وحمة ، وفكره الحائر الذي يرغب في الجدل والمناقشة ، ويوغل في البرهنة والاستدلال ليكشف الحقائق الجديدة التي تعترضه ، وإرادته التي تقوى حيناً وتضعف حيناً آخر ، وأخيراً علاقته بمن حوله وما تقتضيه هذه العلاقة من تكوين أندية ومجتمعات والانخراط في سلك بعض الهيئات والجمعيات .

وإنا لنندع جانباً كل هذه النواحي ونقصر كلامنا اليوم على نقطة واحدة ، وهي استعداد الشباب للتجديد والإصلاح ، فنوضح هذا الاستعداد على ضوء التاريخ والواقع ، ثم نحاول أن نعلله تعليلاً علمياً أو نبيئاً أثره في الحياة الاجتماعية . فنحن إذن أمام ظاهرة سيكولوجية واجتماعية لا ننظر أنها درست من قبل دراسة وافية ، وكل ما نحظى به عنها إنما هو شذرات متفرقة في كتب الأدب والفلسفة والتاريخ .

ولانزع في أن الشبان - بوجه عام - أسرع تقبلاً لافكار الجديدة وأرغب في مناصرة النهوض والإصلاح ، فهم الدعاة الأول للذاهب الحديثة ، وأعوان الأبطال والرعماء والمصلحين ، وفي الماضي والحاضر ما يؤيد ذلك تمام التأييد . فقدما التف شباب أثينا حول سقراط وتابموه في الأسواق والطرقات ، وعرض أهلاطون آراءه المختلفة ونظرياته المبتكرة على لسان نسمة عشر شاباً تخيرهم أبطالا لمحاوراته ، وحوار يوعيسى وأنصار محمد ، عليهما السلام ، في أغلبهم شبيبة وهبت نفوسها لله وإعلاء كلمة الدين . وحديثاً نرى الثورات والحركات الاجتماعية على اختلافها إنما قامت على أعناق الشبان ، فشهداء الحرية في مصر وأعوان الفاشستية في ايطاليا ، وجنود المهترية في ألمانيا في ظليتهم العظيمى شبان وهبوا ارواحهم فداء للوطن .

وليس الأمر بمقصود على الرجال ، بل يشمل النساء أيضا . فالمرأة وإن تكن أقرب الى المحافظة ، مجددة في شبابها ومستعدة للأخذ بطريف الآراء وغريبها ، وقد أثبت تطور الأزياء " والمواد " أخيراً أن الشابة ربما كانت أحياناً أرغب في التجديد من الشاب . نعم لأنه قد يكون بين الشبان محافظون ، إلا أنهم شواذ وقليلون ، وقد تمر على الشباب فترة ينفر فيها من الإصلاح ويمقت التجديد ، ولكنها نفرة غير طبيعية يجب البحث عن أسبابها الخارجية .

هذه هي الظاهرة . وأما تعليلها فيرجع الى عوامل عدة ، أهمها أن في شباب نشاطا جسميا متوفرا يتطلب منفذا وسبلا يصرف فيها . وقد كان الطفل من قبل ينفق قواه الجسمية في حركات لا معنى لها ، ويوم أن يشب يتخير الغاية والغرض ، فيشارك في الأندية والألعاب ليبدل قسطا من نشاطه ، ويقبل على حركات التجديد والاصلاح التي تتطلب جهودا عظيمة وحيوية متوفرة ، ”وما التجديد في أبسط صورته إلا خروج على نمول العادة وكسل السجية“ .

وفي الشاب فوق هذا وجدان حي وعواطف متأججة تملؤه حرارة وتدفعه الى الأمام ، وفي مقدمة ذلك طاقة من العواطف السامية ، كالإيثار والتضحية والثقة بالنفس ، التي تسوقه نحو التجديد وتدفعه الى كل عمل نبيل . فهو مؤثر لا أثر ، يحب الغير حبا خالصا ، وظاهر برىء لم يدنس بدنس الحياة بعد ، والتجديد والاصلاح إنما يقوم في دمايته الأولى على الإيثار وحب الغير . وهو بطل مضح يعنيه إعجاب الناس وتقديرهم له ، ولولا البطولة والتضحية ما أمكن الجهر برأى جديد ولا إعلان دعوة تخرج على المألوف . وهو أيضا مملوء ثقة بنفسه ، فلا يأبه بصعوبة ولا يسلم بمستحيل ، بل تأتي همته إلا أن تتخطى الصعاب وتتغلب على الشدائد .

وما يدفع الشاب الى الجهد ويممله على اعتناقه خياله الخصب الذي لا يقف عند حد ولا يتنحى بفاية . ولا نزاع في أن الشباب هو مرحلة الشعر والقصص والروايات والتمثيل والصور الزاهية والفنون الجميلة بوجه عام ، ولا تكاد تصدله في ذلك مرحلة أخرى من مراحل العمر . ومن منا لم يقبض في أيام شبابه ليلة أو ليلتي في قراءة رواية أو تدوين رسالة أو قرص قصيدة سواء أعرف الشعر أم لم يعرفه ، وأجاده أم لم يجده ؟ ومن منا لم يؤخذ بالطبيعة وجمالها بغلس اليها يناجيا ويتأمل فيها ؟ ومن منا لم يرن قصورا في أسبانيا — كما يقولون — ويرسم لنفسه صورا من الأمل الحلو والاحلام اللذيذة ؟ ذلك لأن مخيلة الشباب القوية في بنفسها للواقع تبحث عن عالم آخر أفسح وأجمل تسبح فيه ، فاذا ما قدم لها مجدد أو مصلح نموذجاً لهذا العالم المنشود طارت له فرحا واطمأنت إليه . والاختراعات النافعة والنظريات الصحيحة في أول أمرها خيال لم يلبث أن تحول الى حقيقة ثابتة .

وهناك عامل آخر فكري يدفع الشبان الى التجديد ويحفزهم الى الاصلاح ، ألا وهو تمسكهم للمثل العليا وسيرهم وراءها وإن لم تتضح لديهم كل الاتضاح ولم تفهم تمام الفهم . وليست حياة الشاب العقلية مجرد عواطف جامحة وخيال ساجح ، بل فيها قسط من النظر والتأمل والبحث والتفكير فهو ينكر في الآراء الجديدة ويدافع عما ارتضاه منها ، وقد يفلو في دفاعه هذا الى حد الاستماتة والتعصب الأعمى ، ويستمسك بأهداب بعض المثل العليا ويسر وراءها سيرا كله وفاء وإخلاص .

وأخيرا لا يكاد الطفل يشب حتى يشعر بطلاقة لم يأفها وحرية لا عهد له بها ، فيخرج من قيود الأمرة وسلطانها الى بحبوحة المجتمع ومعته ، ويرغب في أن يقاسم في هذا العالم الجديد الذي أصبح عضوا منه ، ويستطيب تلك الحرية التي لا تعرف الحدود والضوابط . ذلك لأنها حرية نقية صافية لا تقبل المجاملة ولا تفر المواردية والمداهنة ، ولا ترضى عن الحلول الوسطى والآراء المتلوية . وما أحوج التجديد والاصلاح الى حرية من هذا اللون وصراحة من هذا الطراز !

فهذه العوامل مجتمعة جعلت "الشباب يعيش في المستقبل في حين أن الطفل يعيش في الحاضر والشيخ في الماضي" وما التجديد الا مستقبل زريده أن يكون حاضرا ، وما الاصلاح إلا أمل بعيد نود أن نراه قريبا وخيال حلو نرغب في أن نشاهده أمرا واقعا . فحين يدعى الشاب الى تجديد واصلاح إنما يدعى الى عالمه ويسكن الى البيئة التي تلائمها ، فهو مجلد بطيئه وميال الى التغيير والاصلاح بفطرته . ولعل من أسباب التوازن الاجتماعي أن ترى الشبان يقفزون والى جانهم الشيوخ هادئين وادعين ، فتتحرك في هدوء ونهدأ في حركة ، وذلك هو السير النافع الرزين .

فن الخير إذن أن تتوافر لدى الشبان تلك النزعة الاصلاحية ، وأن يمتثلوا رغبة في النهوض والتجديد . وتطور الجمادات بامة يتوقف الى حد كبير على هذا الاستعداد الكريم . ولا نكاد نذكر نهضتنا الأخيرة حتى نذكر ما كان للشباب فيها من جهود وآثار حميدة ، فهو الذي لبي النداء لأول وهلة ، ورفع الصوت جهرة في غير ما وجل مد لنا كلمة الحق والأمة ، وأخذ يردد تلك الأثوذة العظيمة : " بالدماء تحرر الأوطان " و " نموت ويحيى الوطن " . وبذل روحه وجسمه في سبيل وطنه وأمه ، فمذب منه فريق واعتقل آخر ، وجرح منه من جرح وأصيب من أصيب . ولم كان يهر الناظر حماسه في مظاهراته ، ونشاطه في اجتماعاته ، وصدقه في مختلف حركاته ومسكناته . لا يعمل لفاية ولا يحسب حسابا لنواب أو مكافأة ، وإنما كان كل همه أن يسود كلمة الأمة ، وفي هذا الثواب الذي لا ثواب بعده والمكافأة التي لا تعدلها مكافأة . وقد كان مؤمنا كل الإيمان بمطلبه ، فلم يبال بفشل ولم تؤثر في نفسه هزيمة ، كبير الأمل في مستقبل مصر ، فلا يتهاون في حقوقها ولا يرضى بغير الاستقلال التام بدبلا ، وثابا يسير الى الأمام دائما ، فلا يلتفت الى جماعة المحافظين والجامدين ولا يستمع الى دعاة التردد والهاقنين .

ولكن يسوؤني أن ألاحظ أن كثيرا من تلك النفوس الطاهرة قد تدنس ، وأن بعضا من تلك القلوب الخالصة قد فسدت ، وبدأنا نشاهد في السنوات الأخيرة عدوى الشيوخ تسير الى الشبان الأبرياء فاضخوا أنانيين منفعيين يفكرون فقط في أنفسهم ومستقبلهم ، وشغلوا كما شغل غيرهم بالفنائم واقتسامها ، والفرص واغتنامها ، والدرجات والحصول إليها ، وسرت بينهم موجة خبيثة

من الجلود والرجمية ، فبعد أن كانوا بالأمس أنصار الحديد أصبحوا اليوم خصومه ، وبعد أن كانت صدورهم تنسع لكل رأى أخذوا يضيقون ذرعا بكل فكرة لم يالفوها ، وفيهم يأس قاتل يتنافى مع همهم العالية ، ونحول شامل لا يتفق ونموهم الجسمي ، واستهتار تتضامل معه عظام الأمور وجلائل الأعمال ، وقل أن يجدوا في مسألة عامة ويتفرغوا لها كما كان يصنع إخوانهم السابقون .

وكل تلك أعراض خطيرة تستلقت النظر وتتطلب العلاج السريع ، لأننا لازلنا من نهوضنا في بدنه ومن إصلاحنا في مقدمته ، ولا يمكن أن يكتمل هذا النهوض ولا أن يتم هذا الإصلاح إلا إذا عاونه الشبان وآمنوا به وأقبلوا عليه . وأغلب الظن أن هذه الأمراض التي أضرنا إليها ترجع في قدر كبير منها إلى الحزبية العمياء التي انغمس بعض شباننا فيها فقضت في نفوسهم على فضيلة الإخلاص للوطن والبر به والعمل على مرضاته ، وصيرتهم جنودا للأهواء والشهوات تميل بهم إلى حيث تميل . وفي هذا ما يهدم المثل العليا من أساسها ، ويقضى على المبادئ السامية كيفما كانت منزلتها . وكيف يعمل من لا مبدأ له أو يسعى من ليس أمامه مثل أعلى ينشده ؟

على أننا لم نقف في هدمنا لهذه المبادئ وتلك المثل عند هذا الحد ، بل قامت خصوماتنا السياسية على تناحر وتطاحن أعمى يهدم الحق الصراح وينكر الأمور المسلمة ، فليس ثمة برنامج خال من النقد ولا عقيدة سليمة من التجريح ، لا تنصف أنفسنا ولا تنصف خصومنا ، ندعى ما لم نفعل ونتقول على غيرنا ما لم يقل ، ولا نتفق على كثير من الوقائع التي حدثت بين ظهورنا وبيننا وعلى مرأى منا ومسمع ، فاضطربت الآراء وتبيلبت الأفكار . فقل لي بربك كيف يطمئن الشاب في جو كهذا إلى دعوة حق أو يستجيب لنداء واجب ، خصوصا وهو يشعر بشيء من اليأس وخيبة الأمل ، لأنه سمع الكثير من الوعود الخلابة والأمانى الحلوة التي تجرت في ساعة التنفيذ ولم يتحقق منها إلا التزر اليسير . وكثيرا ما عقد الآمال على تعاقب المنفذين وتوالى المصلحين ، فلا يجد نفسه قد خطا إلى الأمام خطوات واضحة . ويظهر من جهة أخرى أن آمالنا جميعا أكثر من أعمالنا ، نجلس جلسة القرفصاء دون حراك أو عمل ثم نتمنى على الله الأمانى ، وإذا لم يتحقق شيء مما كنا نأمله شعرنا بخيبة بالغة . فإذا كنا نعدّ الشباب للتجديد والإصلاح ، وإذا كنا نقول عليه في النهوض والتقدم ، فلنقده في هذا السبيل بحكمة ، ولنبرهن له عمليا على استمساكنا بالمبادئ التي ندعو إليها وحرصنا على التعاليم التي ننادى بها ، فليس شيء أدعى للقضاء على فكرة من أن يخرج عليها أنصارها ، وليس شيء أهدون للدعاة والمصلحين من أن تناقض أفعالهم أقوالهم ما

ابراهيم مذكور